مغبة الدعوة إليه . وكان يرى الجمهور يعجز عن أن يقرأ شعر المجنون وأضرابه ، وابن أبى ربيعة وابن مناذر والحسين الضحاك وحماد عجرد وغيرهم ممن حذا حذوهم ، وغنى على ليلاهم . ومظهر هذا العجز عند العقاد أنهم لا يفطنون إلى ما قد يكتنف هذا الشعر أو ذاك من سرف متميز من النضج العاطفى . ولا ريب اتهم العقاد الذين يتهمونه بأنهم محتاجون إلى درس قاس فى مفهوم العاطفة الناضجة ، أو اتهمهم بالعجز عن التحليل المثمر لنشاط الكلمات . والحقيقة أن معظم القراء يميلون إلى إعطاء ما يسمونه فى لغة ما باسم الإحلال أو الاستشعار أو العدوى الانفعالية قيمة ، وينسون أن هذا كله لا يدل على أن التعامل مع الكلمات تعامل قيم . إن كثرة المادة النظرية فى النقد الأدبى لا يمكن أن تخفى الانحراف أو الفروق الهائلة فى القراءة العملية للنصوص . وجدير بنا أن نولى هذه المسألة ما تستحق من رعاية .

(١٣)

إن التعامل مع اللغة عند العقاد تذكرة مفيدة للنشاط المعاصر الغارق فى متابعة البنائية والعلامات . فالعقاد لا يؤمن بأن اللغة تقاس بمقياس الحساب أو المنطق . لا تفهم اللغة بمعزل عما يسميه القيم الوجدانية . ولا يفترق تناول اللغة فى هذا الباب عن تناول الجمال والحب والأخلاق المثل . والمقصود بالقيم الوجدانية هو الاستيعاب الذى يتحرى مزاجاً من الألفة والغرابة . وقد غالى فريق كبير من الباحثين الذين ظنوا أن العقاد لم يعرف غير طريقة التحليل النفسانى . والحقيقة أن فلسفة الظاهرية تؤدى فى تناول العقاد للغة دوراً لا يمكن إنكاره . ومن خلال هذه الفلسفة كان يشكل ما يقرؤه فى صورة تلبى احتياجات المشاعر العربية الأساسية . وربما ترك العقاد الظاهريات تختمر فى ذهنه أمداً طويلاً حتى تعود فتسيل على قلمه وقد اتخذت صبغة روحية قريبة من العقل العربى .

معظم الذين نقدوا العقاد لم يدركوا فلسفة الظاهرية إدراك العقاد . وفى وقت من الأوقات سيطرت على العقاد كما يقول الدكتور عبدالفتاح الديدى رغبة فى اكتشاف ظاهريات التعبير فى لغتنا العربية . كان العقاد يعلم أن كل مذهب يحاول أن يخضع اللغة لمقاييسه الخاصة ، وكل مذهب كان يحتاج إلى فحص اللغة ليتبين ما يلزمه تأكيده أو إخفاؤه .